« حى بن يقظان » لابن طفيل
بين الفكر والفن

اعـــداد

د/ داود لطفى حافظ محمد

مدرس الأدب والنقـــد

بكليـــة اللغـــة العربية ـــ جـــامعة الأزهر بأسيوط

الحمد لله رب العـــالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ـــ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم •

سبحانك يا الله لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • ولا فهم لنا الا ما فهمتنا انك أنت الجواد الكريم • اللهم يا معلم آدم علمنا ، ويا مفهم سليمان فهمنا •

وبعـــــد ••

تعـــد قصـــة « حى بن يقظـــان » لابن طفيل الأندلسى فى نظر خاصة المفـــكرين والمثقفين من أكبر الأعمال القصصية الفـــكرية فى العصور الوسطى ، لا فى الأدب العربى وحـــده ، ولكن فى نطـــاق الآداب العالمية جميعا ••

ومؤلفها فيلسوف كبير مرموق فى نطـــاق الفلسفة الاسلامية ، تلميذ مخلص لشيخ فلاسفة الشرق ، ابن ســـينا ، متأثر بأفـــكاره ، راســـم على منهاجه ، وطبيب ماهر ، حتى انه كان الطبيب الخـــاص

والوزير للسلطان أبى يعقوب يوسف أحد سلاطين دولة الموحدين • وهو فوق كل ذلك أديب رقيق ، وشاعر أنيق(١) •

وقصة « حى بن يقظان » تجمع بين الفكر الفلسفى ، والفكر الطبى ، والفكر الفلكى ، والفن الأدبى •

وسوف نحاول أن نتبين كل ذلك ان شاء الله فى هذه القراءة لحى بن يقظان بادئين بالتعريف بالمؤلف ، ثم عرض مضمون القصة ، ثم بيان الفكر فى القصة ، ثم الفن فى القصة ، ثم القصة بين التأثر والتأثير ، ثم الخاتمة • وقائمة بأهم المصادر والمراجع •

التعريف بالمؤلف :

ايمانا منا بأن هناك صلة وثيقة بين المبدع وابداعاته ، حتى ان العمل الفنى ليكون — أحيانا — ترجمة أمينة ، وسيرة ذاتية لمؤلفه ، ومعبرا عن مكنون نفسه ، ووسيلة لنقل فكره الى المتلقى •

يجدر بنا قبل أن نتعرض لهذا الأثر الفنى « حى بن يقظان » أن نتعرف على مؤلفه ، لنقف على مدى ما يعكس هذا العمل الفنى من فكر صاحبه • فماذا يقول التاريخ عن ابن طفيل ؟

هو : « محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، أبو بكر ، فيلسوف ، يرجع أصله الى قبيلة « قيس » المعروفة ، من العرب الشمالية المستعربة ، وينسب أيضا ، فيقال : الأندلسى ، والقرطبى والاشبيلى (نسبة الى البقاع التى تقلب فيها ، مما يفسر بأنه — تعدد

---

(١) د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى : موضوعاته وفنونه ص ٦٨٥ دار العلم للملايين بيروت ط ٦ مارس ١٩٨٦م •

هـذا النسب ـ دليل على الانتماء وحب الأرض ، أو لعله دليل على عدم استقرار ابن طفيل ، والمفكر الأندلسى عموما فى مكان محدد من بلاده بسبب الفتن الداخليـة والحروب الخارجيـة مما يصيبه بالقلق المتواصل الذى يؤثر على المفكر عموما سلبا لا ايجـابا)(١) ، لكننا لا نرى صدق هـذا الرأى على ابن طفيل وفكره وفنه •

وقد أطلق علماء النصارى على ابن طفيل فى القرون الوسـطى (أبو باسر) ، وهو تعريف لكلمة : « أبو بكر » ، ويكنى أحيانا ، وهو الأقل أبو جعفر •

ولد فى آسن ، وتسمى اليوم Guadix على مسافة ٥٣ كم فى الشمال من قرطبة • ولا يذكر لنا التاريخ شيئا عن تاريخ ميـلاده يقينا ، فيذكر أنه عاش بين ٤٩٤ ـ ٥٨١هـ الموافق ١١٠٠ ـ ١١٨٥م ، وقيل يرجح أنه ولد فى السنوات العشر الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى ، أى بين سـنة ٤٩٥ الى سـنة ٥٠٥هـ ، وتكاد تجمع الآراء على تاريخ وفاته سـنة ٥٨١هـ الموافق ١١٨٥م •

ويسكت التاريخ عن ذكر شىء عن طفولتـه وشـبابه ، وأسرته ومركزها الاجتماعى ، وكيف قضى طفولته ؟ وأين قضاها ؟ وكيف تعلم ؟ وعلى من تعلم ؟ ويضعنا مباشرة وجها لوجه أمام ابن طفيل صـاحب رسالة « حى بن يقظان » وهو فى طور النضـج والاكتمال العلمى ،

---

(٢) د/ عبد الله بن على بن الثقفـان : الأدب الأندلسى بين حقيقتـه ومحاولة اغتيـاله ص ٨٣ • سلسلة كتاب الرياض عـدد ٣٢ أغسطس ١٩٩٦م • مؤسسة اليمامة الصـحفية •

فيمضي بنا سريعا فيضعه أمامنا دارسا للطب فى غرناطة ، ثم فى منصب أمين الأسرار لحاكم ولاية غرناطة ، ثم كاتم أسرار لدى الأمير أبى سعيد حاكم « طنجة » وهو أحد أولاد عبد المؤمن ثم طبيب أبى سعيد حاكم « طنجة » وهو أحد أولاد عبد المؤمن ثم طبيب المؤرخين من ينكر وزارة ابن طفيل لأبى يعقوب ، وفى رحاب أبى يعقوب عاش ابن طفيل عيشة هادئة مطمئنة ، كان فيها الطبيب ، وكان فيها المستشار العلمى ...

وقد استمر ابن طفيل فى صحبة أبى يعقوب الى سنة ٥٨٠هـ حيث توفى أبو يعقوب ، ولما قام بالأمر من بعده ولده أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور ، مكث ابن طفيل فى صحبته ، بيد أن حياته لم تطل بعد صديقه ، فقد وافته المنية بعد وفاة أبى يعقوب بسنة واحدة أى سنة ٥٨١هـ فاحتفل بدفنه احتفالاً يليق بمكانته ، وسار أبو يوسف يعقوب بنفسه فى جنازته(٣) .

ويعد ابن طفيل ثالث ثلاثة أشرقت بفضل جهودهم شمس الحكمة والتفكير الاسلامى فى بلاد المغرب العربى ، بعد أن جنحت الى المغيب من المشرق العربى الذى ولدت فيه وهؤلاء الثلاثة هم : ابن ماجه ،

---

(٣) راجع فيما سبق : الزركلى : الأعلام ٦/٢٤٩ . دار العلم للملايين ط ٤ ، ١٩٧٩/١م وابراهيم خورشيد وآخران : دائرة المعارف الاسلامية ١/٣٢٩ دار الشعب . كتاب الشعب . ود/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ورسالته حى بن يقظان ص ٥ ـ ١٠ مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ ود/ عبد الرحمن بدوى : حى بن يقظان ص ٣ ـ ٩ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب . مكتبة الأسرة . تراث الانسانية ١٩٩٥م .

وابن رشـــد ، وابن طفيل(٤) • لكن « الجهود لم تتضافر بعـــد على دراسة ابن طفيل كما تضافرت على دراسة غيره كابن رشد وابن سينا ، لذلك لايزال هـــذا الفيلسوف فى حاجة الى درس أوســـع ، وبحث أشمل ، يبين أغراضه الحقيقية وأفكاره التى نثرها خلال قصته التى مر عليها الكثيرون مرورا عابرا دون أن يمنحوها ما ينبغى لها من أهمية ودرس »(٥) •

سائلين الله العون أن نوفق فى هـــذا العمل الى ذلك والى بيـــان أهميتها الفكرية ، والفنيـــة •

ترى ما الذى أهل ابن طفيل أن يصل الى ما وصل اليه ، وجعل له هـــذا الأثر فى الفكر الاسلامى ؟ انها مؤلفاته التى تنوعت بين الفلسفة والفلك والطب والأدب ، يحدثنا المؤرخون عن رسالة لابن طفيل فى النفس(٦) •

وعن مؤلفات فى الطب ، ذكر لسان الدين ابن الخطيب ••• أنه ألف كتابا فى الطب فى مجلدين ، كما ذكر أن له أرجوزة فى الطب ، وذكر ابن أبى أصيبعة أن لابن رشد كتابا عنوانه : مراجعات ومباحثات بين أبى بكر بن الطفيل وبين ابن رشـــد فى رسمه للدواء فى كتـــابه الموسوم بالكليات ••• وله مؤلفان فى الفلك يشير ابن رشد الى أحدهما فى شرحه الأوسط على كتاب الآثار العلوية لأرسطو طاليس(٧) •

---

(٤) شخصيات اسلامية : جريدة الأحرار ص ٩ الجمعة ١٧ من رمضان ١٤١٥هـ ١٧/٢/١٩٩٥م العدد ١١٥٢ السنة ١٨ •

(٥) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٦ مصدر سابق •

(٦) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ١١ •

(٧) د/ عبد الرحمن بدوى : حى بن يقظان ص ١٠

ويذكر البطروجى الفلكى وابن رشد أن ابن طفيل وفق لنظام فلكى يخالف النظام الذى وضعه بطليموس ، بيد أننا على جهل تام بهذا النظام الفلكى وبغيره من النواحى الأخرى ، والى جانب ذلك كله ، فقد كان ابن طفيل أديبا ناثرا ، ورسالة حى بن يقظان تبرهن على ذلك فى وضوح تام ــ كما سنوضح ان شاء الله ــ .

كما كان ابن طفيل شاعرا أيضا ، وقد كان فى شعره صاحب مزاج ، وذلك أنه لم يتكسب بشعره ، ولذلك اقتصر شعره تقريبا على العواطف والفلسفة(٨) وشعره متوسط الجودة(٩) ، فمن شعره العاطفى قوله :

ولما التقينا بعد طول تهاجر
وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق
فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساعدنى جفن الغمام على البكا
فلم أدر دمعا أينما كان أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت
قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا
يهون صعبا أو يرخص مأثما

---

(٨) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ١١ .
(٩) د/ عبد الرحمن بدوى : حى بن يقظان ص ١٠ .

فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما(١٠)

وهو شعر ينم عن حب عفيف من رجل محب فتاة ناضجة ، وصلت حبه بعد طول هجر ، لكنه كان وصلا عفيفا ، فحين رأت لسان حال الشوق ينبىء عن تصرف يخدش عفافها ، أو يؤدى الى اثم ذكرته بنفسه ، فحركت فيه ما كان غافيا من عقل راجح ، كادت تذهبه الرغبة ، فأمسك لا عن استغناء عن نوالها ، ولكن ثقة منه أن الصبر أوفى لها وأكرم لهما .

ومن شعره الفلسفى هذه الأبيات يتحدث فيها عن صلة الروح بالبدن فيقول :

نور تردد فى طين الى أجل
فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا
أظنها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن فى رضا الله اجتماعهما
فيالها صفقة تمت على غبن(١١)

وهو هنا يتحدث عن علاقة الروح التى هى « نور » بالبدن الذى هو « طين » وهى علاقة مؤقتة الى أجل ، وحين يحين ، تصعد الروح الى أعلى ، ويبقى البدن (الطين) للكفن ، وهو افتراق بين بعد اتصال

---

(١٠) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ١٢ .
(١١) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ١٢ .

قوى ، وكأن هـذا الافتراق هو الهدف من وراء الاتصال ، ثم يكون الحساب ، فان لم يكن اجتماع الروح (النور) بالبدن (الطين) فى رضا الله تعالى فانها تركة خاسرة للطرفين ولابن طفيل شعر روى المراكشى فى « المعجب » طرفا منه ، كذلك نشر له غرين غومس قصيدة سياسية فى العدد الأول من مجلة الدراسات الاسلامية فى مدريد(١٢) .

أما الجانب الفلسفى فى فكر ابن طفيل ، وهو الجدير حقا بالعناية والتقدير ، فلم يبق منه غير « حى بن يقظان »(١٣) التى هى منـاط اهتمامنا فى هـذا المقام ، فهل هى رسالة أو قصة ؟ وما هدف ابن طفيل من كتابتها ؟ وبأى أسلوب صاغها ؟ وفى أى قالب فنى حاكها ؟ وهل توفرت فيها أركان القصة ان كانت كذلك ؟ وما الفكرة التى تدور حولها ؟ وأمور أخرى ستتضح فى حينها — ان شاء الله — وحتى نجيب على كل هـذه التساؤلات حرى بنا أن نورد مضمون هـذا العمل تفصيلا حتى نقف على الفكر الذى يحويه ، والفن فى صياغته ؛ لأنه من الصعوبة بمكان تلخيص هـذه القصة ، لأنها تحوى أفكارا فلسفية عميقة لا يمكن ايجازها ، بل هى محتاجة الى شرح يفك رموزها ويكشف غوامضها .

---

(١٢) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ١٢ وانظر كامل كيلانى : قصص عربية ص ١٠٢ أمثلة أخرى لشعره الفلسفى
وانظر د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٦٨٦ وما بعدها دار العلم للملايين ط ٦ مارس ١٩٨٦م أمثلة لشعره العاطفى .

(١٣) د/ عبد الحليم محمود المرجع السابق ص ١١ ود/عبدالرحمن بدوى : حى بن يقظان ص ١١ .

« حى بن يقظـان »

عرض الأحـــداث

يبدأ ابن طفيل عمله بالحمد لله ، والثناء عليه ، وشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والصـلاة على رسول الله ﷺ » وكعادة المؤلفين آنذاك ، يشرع فى وضع مقدمة نثرية يوضح فيهـا الباعث على تأليف عمله ، وهو أنه سـئل أن يشرح أسرار الحـكمة المشرقة التى ذكرها الشيخ الرئيس أبو على ابن سـينا ، وحتى يتسنى له الاجابة ، كان عليه أن يعيش التجربة التى أفضت به الى مشـاهدة حال لم يشهدها من قبل ، ويعجز اللسان والبيـان عن أن يفصح عن مكنونها ، ووصل اليها غيره وقالوا كلاما جر عليهم سخط العامة ، كقول بعضهم : سبحانى ، ما أعظم شانى ••• الخ •

وقد جر ابن طفيل الحديث عن المشاهدة الى الحديث عن الفـرق بين ادراك أهل النظر ، وادراك أهل الولاية •••

ثم ذكر الهدف الذى من أجله أورد قصـة « حى بن يقظـان » للسائل ، وهو أنه يريد أن يأخذ بيده للوصول الى ما وصل اليه من حال المشـاهدة •

وقبل أن يسرد أحداث القصة يذكر مصدرها ، ومكانها ، وزمانها ، وبطلها أما مصدرها فهم السلف الصـالح ، أما زمانها فغـير معلوم تحديدا ، فهى شائعة فى الزمن المـاضى ، أما مكانها فهو جزيرة من جزائر الهند ، أما بطلها فهو طفل نشأ من غير أب أو أم ، أو من أبويين تزوجا سرا ، ولم يستطيعا مواجهة الحياة به ، فألقت به أمه فى اليم حتى وصل الى تلك الجزيرة •

ويهدف من كل ذلك الى الحديث عن نشأة بطل القصة « حـــى » فيذكر المكان بأنه جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء يتولد الانسان فيها من غير أم ولا أب وبه شجر يثمر نساء ويتوقف ليناقش قضية خلق الانسان من غير أم ولا أب مع المؤرخين الذين يقولون ان هـــذا المكان (الجزيرة) أعدل بقاع الأرض هـــواء ، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعدادا ، لينقض هو هـــذا الرأى بأنه خـــلاف ما يراه جمهور الفلاسفة ، وكبار الأطباء فانهم يرون أن أعدل ما فى المعمورة الاقليم الرابع ، ويذكر من أدلته ما يشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعـــة من غـــير أم ولا أب ويذكر أن من الفلاسفة من جزم بأن « حـــى » ولد من غير أم ولا أب ، ومنهم من أنكر ذلك ، وروى من أمر « حـــى » خبرا ملخصـــه : أنه كان بازاء الجزيرة التى نشأ فيها « حـــى » رجل شديد الأنفة والغيرة ، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر ، فعضلها ، ومنعها الأزواج ، اذ لم يجد لها كفوا ، فتزوجت سرا من قريب له يسمى « يقظان » وحملت منه ، ووضعت « حـــى » وحين خافت عليـــه ، وضـــعته فى تابوت محكم ، وألقته فى اليم داعية ربها أن يحفظه من بطش أخيها ، وقذفت به الأمواج الى ساحل الجزيرة واحتـــاج الطفل الى الغـــذاء فبكى ، واستغاث ، فساق الله اليـــه ظبية فقدت وليدها ، فظنته هو ، فحنت عليه ، وألقمته حلمتها ، وأروته لبنا سائغا ، وأخذت تتعهده ، وتربيه ، وتدفع عنـــه الأذى ...

وبعـــد أن يورد ابن طفيل الرأيين فى خلق « حـــى » يتوقف ليوضح بما يعرف ـــمن علوم الطبيعة كيفية خلق الانسان من الأرض ،

وكأنه يتحدث عن خلق « آدم » عليه السلام ، متتبعا مراحل الخلق منذ أن كان قبضة من طين الى أن صار خلقا كاملا تام الأعضاء .

ثم يعود الى « حـــى » فيذكر أن الطفل أيا كان خلقه من أبويين أو من غيرهما تعلق بالظبية تعلق الولد بأمه ، الى أن تم له « حولان » فكانت تطعمه ما تساقط من ثمر الشجر الحلو الناضـــج ، وكان كلام « حـــى » آنذاك تقليدا لأصوات الطيور والحيوانات ، فتآلف معهما ، ثم أخـــذ « حـــى » يقارن بين نفسه وبين الحيوانات فى الجزيرة من حيث الشكل والجسد ، والوبر والشعر ، والريش ، والقوة ، والأسلحة الفطرية مثل القرون والأنياب والحوافر ، والمخالب ، فـــيرى ما به من العرى ، وعدم السلاح ، وضعف العدو ، وقلة البطش ، فكان ذلك يكربه ويسوءه ، وحين تم عمره سبعة أعوام اتخذ من ورق الشجر ما يستر به نفسه ، واتخذ من أغصان الشجر عصيا يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف فيها ، ويقاوم القوى مما أعاد له بعض الثقة فى نفسه ، وتطور لباسه الى أن أصبح من ريش النســـور بدلا من أوراق الشجر والحلفاء .

وحين قوى عوده ، واشتد صلبه ، وتقدمت السن بالظبيـــة كان يتعهدها بالرعاية والعناية ، الى أن أدركها الموت ، فجزع « حـــى » جزعا شديدا وبحث عن موضع آفة فيها ليزيلها ، ويعيد اليها الحياة ، لكنه لم يجد شيئا ظاهرا ، ووقع فى خاطره أن الآفة قـــد تكون فى عضو غائب عن العيان فى باطن الجسد ، وظن أنها فى صدرها ، لمـــا كان يجـــد هو من أهمية هـــذا العضو فى نفسه ، حين كان يحـــارب الوحوش ، فكان أكثر شىء يتقيه هو صدره ، لشعوره بأهمية الشىء الذى فيـــه ، فعزم على شق صدرها ، واستعان بكسور الأحجـــار

الصلدة لتكون آلة للتشريح ، وفى طريقه الى مطلوبه وجد « الرئة » ولم يجد بها آفة ، فتركها الى ما هو فى وسط الجسد وهو « القلب » بين الرئتين ، وجرد القلب ، ونظر فيه ، لكنه لم ير فيه آفة ظاهرة فشد عليه يده ، فرأى فيه تجويفا ، « فشق القلب » فوجد فيه تجويفين ، ولم يجد فيهما آفة ظاهرة ، بل وجد أن أحدهما من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد ، والذى من الجهة اليسرى خال لا شىء فيه ، فأيقن أن مطلوبه كان فى هذا « القلب » فارتحل عنه وأخلاه ، وعند ذلك فقد الادراك وعدم الحراك ، فتساءل : ما هذا الشىء ؟ وكيف هو ؟ وما الذى ربطه بهذا الجسد ؟ والى أين صار ؟ وكيف خرج ؟ ولم ؟ ...

وأيقن أن هذا الشىء هو سر الحياة ، وأن الجسد بجملته انما هو كالآلة له ، فانتقل تفكيره الى صاحب هذا الجسد ومحركه ، واشتد شوقه الى معرفته ، وتحولت جثة الظبية ونتنت ، وتحير فى أمرها ونفر منها ، فرأى غرابين يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا ، ثم حفر له حفرة وارى فيها ذلك الميت بالتراب ، ففعل « حى » مثل ما فعل الغراب .

وكان « حى » ينظر فى الظباء فيجدها على شكل أمه الظبية ، فكان يألفها ، ويحن اليها اعتقادا منه أن بها الشىء الذى كان يحرك أمه ويصرفها ، وكان ينظر فى سائر الحيوانات لعله يجد شبيها له ، وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة فاعتقد أنه ليس فى الوجود أرض سوى جزيرته تلك .

وعرف النار عن طريق الصدفة ، حين انقدحت نار فى أجمة ؛ لاحتكاكها بأخرى ومد يده ليأخذ شيئا منها فأحرقته ، فاحتال لينقلها الى حيث يعيش ، ليستمتع بها ويأنس بها ليلا ، وعرف كيف يستفيد منها فى شواء وأكل اللحم من صيد البر والبحر • وظن أن يكون سر الحياة الذى ارتحل من قلب أمه الظبية من جوهر النار ، وزاد من ظنه هذا ما يراه من حرارة الحيوان مدة حياته وبرودته بعد موته ، فأراد أن يستوثق من هذا فجاء بحيوان وقام « بتشريحه » حتى وصل الى القلب فوجد الشق الأيسر منه مملوءا بهواء بخارى يشبه الضباب الأبيض ، فأدخل أصبعه فيه فكاد أن يحرقه ، ومات الحيوان على الفور ، فصح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك الحيوان • وواصل تشريح الحيوانات حتى وقف على أن كل شخص من أشخاص الحيوان وان كان كثيرا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بتلك الروح الموجود فى كل حيوان ، وهى التى تمد كل عضو وكل حاسة من الحواس بما يستطيع به أن تباشر عملها ، وأى عضو أو حاسة لم يصل اليه جزء من هذه الروح تعطل ، واذا خرجت من الجسد ، أو فنيت ، أو تحللت تعطل الجسد كله وصار حاله الى الموت •

وحين بلغ عمر « حى » ثلاثة أسابيع « احدى وعشرين سنة » عرف كيف يستفيد من المواد المتاحة له ، فصنع الكساء والحذاء وعرف البناء ، وأدوات الصيد ، وسخر الطير الجارح فى الصيد ، واستأنس الخيل البرية وروضها ليستعيض بها عن قوة يديه ورجليه • وأخذ بعد ذلك يتأمل بادئا بنفسه أولا ثم الأشياء من حوله ، الحيوان ، النبات ، الجماد ، الماء ، الهواء ، النار فلاحت له أسرار وأسرار فرأى أن كل

نوع من هذه الأنواع له خصائص وصفات يتفق فيها جميع أفراده ، وقد يتفق جنس مع جنس آخـر فى بعضها ، مثل الحيوان والنبات فى أن كليهما يغتذى وينمو ، ويمتاز الحيوان على النبات بالاحساس ، والادراك ، والتحرك ، وربما كانت الحركة فى النبات ماثلة فى تحرك عروقه نحو الغذاء لكن الحركة فى الحيوان أتم وأكمل .. والحيوان والنبات فيهما بعض صفات الجماد وهى أنه جسم له طـول وعرض وعمق ، وهو اما حار واما بارد ، وانتهى الى أن الأجسـام كلها شىء واحد ، حيها وجمادها ، متحركها وساكنها من حيث هى جسم ، وتارة كثيرة كثرة لا نهاية لها من حيث أفـراد كل نوع ، ثم عمـق نظرته التأملية فى هذه الأجسام كلها فوجد أن كل واحد منها اما أن يتحرك الى أعلى أو الى أسفل ، وذلك من حيث خصائصه المـادية ، فالدخان واللهيب والهواء يتحرك الى أعلى ، وأجزاء الأرض ، وأجزاء النبات ، والحيوان تتحرك الى أسفل ، وضرب مثالا بالحجر يلقيـه الى أعلى فينزل الى أسفل مرة أخرى . وضرب مثالا على الأشياء التى تتجه الى أعلى لا يمنعها مانع بالهواء اذا ملىء به زق جلد ، ووضع تحت المـاء فانه يطلب العلو .

وهداه ذلك الى أن يعرف أن لكل جسم من هـذه الأجسام وزنا ، فهو اما ثقيل أو خفيف ، ولا يمكن أن يجتمعا معا فى جسم واحـد ، وهو الذى يحرك أحدهما الى أعلى والآخر الى أسفل ، ولمـا عرف أن الجسم يختلف عن الآخر بالوزن رجع بعقله الى الحيوان لينظر ما الذى يجعله يحس ويدرك ويتحرك بالارادة من دون سائر الأجسام الأخرى من الجمادات ، وكذلك النباتات فاهتدى الى الذى عرف بعـد بالنفس

الحيوانية ، والنفس النباتية ، فتعلق فكره بهذا المعنى الزائد على الجسمية « النفس والروح » •

ثم راح يتأمل الماء فرآه حينا يطلب النزول الى أسفل اذا كان باردا فاذا ما سخن تبخر وطلب الصعود الى أعلى ، فاذا برد صار ماء وطلب النزول الى أسفل ، وهكذا دواليك ، فعلم أنه لا يفعل ذلك بنفسه ، وانما بفعل التسخين والتبريد ، فاهتدى الى أن كل حدث لابد له من محدث ، وتتبع كل الصور التى مرت به فرآها كلها حادثة ، وأنها لابد لها من فاعل يفعل بها هذه الأفعال المنسوبة اليها ، فأخذ يبحث عنه من خلال المحسوسات التى يدركها ، فرآها كلها مفتقرة الى الفاعل المختار ، وحدث له شوق الى معرفته ، لكن المحسوسات لم تسعفه ، فوجه نظره نحو السماء ، وما فيها من كواكب — وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عاما (أربعة أسابيع من منشئه) — فعلم أنها أجسام لها طول وعرض وعمق ، لكنه لا يعرف مقدار ذلك ، وهل هى متناهية الطول والعرض أو غير متناهية فى الطول والعرض ، لكنه أيقن أن كل جسم متناه ، ونظر الى الفلك فرآه كرويا بما صح عنده من تأمل حركات الكواكب والشمس والقمر خاصة أنه كان يسكن على خط الاستواء ، وفعل مع هذه الكواكب من التأمل مثل ما فعل مع الحيوان والنبات والجماد والماء والنار والهواء •

ورأى أنها كلها كشخص واحد فى الحقيقة أخذ يفكر فى العالم بجملته — سماء وأرضا — من ناحية الوجود ، والعدم ، والقدم ، والحدوث ، وطال زمن تأمله ؛ ذلك أنه تأمل هذا الفاعل ، هل هو جسم يدرك بالحواس ؟ وانتهى الى فساد هذا الرأى ، لأنه لو كان

الأمر كذلك لاحتاج الى محدث ، والمحدث الى محدث ، وهكذا • وهـذا محال ، واذا لم يكن جسما فلا يمكن للحواس أن تدركه ، ولا أن تتخيله ، كما أن صفات الأجسام مستحيلة عليه ، ولابد أن يكون عالمـا بهـذا العالم وقادرا عليه ، وانتهى الى أنه لابد أن يكون فاعلا غير جسـم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ، ولا داخل فيه ، ولا خارج عنه ••• وأن العالم كله مفتقر اليه ، بناء على أن المـادة من كل جسم مفتقرة الى الصورة ، لتثبت حقيقتها بها ، ولابد للصورة من فاعل ، اذا فجميع الموجودات محتاجة الى هـذا الفاعل ؛ لأنه لا قيام لشيء منها الا به على أي حال ، وهو فى ذاته غنى عنها ، وبريء منها •••

ثم تأمل دقائق صنع هـذا الفـاعل (الله) وعلمـه وحكمته ، فاهتدى الى بعض صفاته من أنه أكرم الكرماء ، وأرحـم الرحماء ، وعلم أن أي فضيلة من الفضـائل الموجـودة أمامه هى من فيض ذلك الفاعل المختار ، ومن وجوده ، ومن فعله ، وهو أعظم منها وأكمل وأتم وأحسن وأجمل وأدوم وأبهى ، كما برىء سبحانه من صفات النقص ، وأنه « كل شيء هالك الا وجهه » فتعلق به سبحانه فقط ، وكان قد وصل سنه آنذاك خمسة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسة وثلاثون عاما • واهتدى آنذاك الى معرفة ذاته التى بها عرف الله ، دون سائر حواسه التى لا تدرك الا المحسوسات ، وعلم أن ذاته التى عرف الله بها روحانية لا تفسد كما تفسد الأجسام وأن مصير هـذه الذات بعد فناء الجسم اما النعيم ان كانت عرفت الله قبل ذلك واتصلت به ، واما العذاب ان كانت عرفته وأعرضت عنه •

وقد أراد « حـى » أن يدوم له النعيم حيـا وميتا ، فأراد أن

يعرف وسائل هـذه السعادة الأبدية ، فكان يلازم الفكر فى الله كل ساعة ، لكن ذلك كان لايدوم له ؛ لأن شيئا ما بداخله ومن حوله يصرفه عن ذلك ، فتأمل العالم من حوله من حيوان ونبات وكواكب وانتهى الى أن الكواكب والأفلاك تعرف واجب الوجـود ، وأن لها ذوات سوى أجسامها ، وليس هناك ما يصرفها عن مشاهدته ، كما يوجد به (حى) ما يصرفه عن المشاهدة ، ورأى أن به شبها بهذه الأجسام السماوية فرأى أن يحاكى أفعالها ويتشبه بها قدر جهده ، كما أنه رأى أنه بجزئه الأشرف الذى به عرف الموجود الواجب الوجود ، فيه شبه ما منه ، فرأى أن يسعى نحو تحصيل صـفاته لنفسه ، وأن يتخلق بأخلاقه ، ويقتدى بأفعاله ، ويجد فى تنفيـذ ارادته •

كما رأى فيه شبها ما من سائر أنواع الحيوان ، وهو البـدن ، وهو لم يخلق عبثا فاتجهت عنده الأعمال التى يجب أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض :

١ ــ عمل يتشبه به بالحيوان •

٢ ــ عمل يتشبه به بالأجسام السماوية •

٣ ــ عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود •

والهدف من هـذه الأعمال الوصول الى السعادة الدائمة بقربه من الله ، وأنه كائن فى العمل الثالث مع شدة الحاجة للعمل الأول والثانى لبقاء جسمه وروحه ، فعمل على بقائهما بالقدر الذى يكفى لبقاء الجسم والروح فقط ، ودأب على ذلك مرة طـويلة حتى وصـل الى المرحلة الثالثة ــ التشبه بالموجود الواجب الوجود ــ ومازال يطلب الفناء عن

نفسه ، والاخلاص فى مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك ، وغابت عن ذكره وفكره السماوات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية ، والقوى الجسمانية ، وجميع القوى المفارقة للمواد ، والتى هى الذوات العارفة بالموجود الحق ، وغابت ذاته فى جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثورا ، ولم يبق الا الواحد الحق ، الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ففهم كلامه ، وسمع نداءه ، ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم ، واستغرق فى حالته هذه ، وشاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ... ذلك أنه رأى فى العالم الالهى مالم يكن يستطيع أن يراه ببصره ، وسمع مالم يكن أن يسمعه بسمعه ، وليس هو الخيال الجامح ، ويعتذر بأن الألفاظ لا تستطيع أن تنقل المعنى الذى وصل اليه ، فقد رأى ذواتا أخرى لنفسه وللكون من حوله ، فلكل فلك ذات بريئة عن المادة ليست هى ذات الواحد الحق ولا ذات فلك آخر غيره ، ولا ذاته هو أيضا ، ولا هى غيرها ، ولها من الكمال والبهاء والحسن ما يعظم عن أن يوصف بلسان ، ويدق أن يكسى بحرف أو صوت وهى فى غاية اللذة والسرور والفرح بمشاهدة ذات الحق — جل جلاله — .

كما رأى ذواتا أخرى تعذب وأخرى تلوح ثم تضمحل ، وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وأنعم النظر اليها فرأى هولا عظيما ، وخطبا جسيما ، وخلقا حثيثا ، وأحكاما بليغة ، تسوية ونفخا ، وانشاءا ونسخا ، فما هو الا أن تثبت قليلا فعادت اليه حواسه ، وتنبه من حاله

تلك التى كانت شبيهة بالغشى ، وزلت قدمه عن ذلك المقام ، ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الالهى .

وبعد أن عاد الى العالم المحسوس سئم الحياة ، فطلب العودة الى المقام الالهى فتكلف السبيل اليه حتى وصل ، ثم عاد الى العالم المحسوس مرة أخرى ومازال يذهب الى العالم الالهى ويعود حتى استطاع أن يتحكم فى المدة التى يبقاها فى مشاهدة العالم الالهى ، ثم يعود للعالم المحسوس للوفاء بمتطلبات بدنه التى كان قد قللها حتى كاد لا يوجد أقل منها ، حتى كان يتمنى أن يريحه الله من هذا البدن ليظل فى مرحلة المشاهدة للعالم الالهى ، وظل كذلك حتى وصل الى سبعة أسابيع من منشئه — وذلك خمسون عاما ، حتى حدث ما شغله عما هو فيه ، وجذبه اليه ، وهو ظهور رجل على مثل صورته فى الجزيرة هو « أسال » وله هو الآخر قصة مع المعرفة ، والبحث عن الحقيقة ، فقد ذكروا : أن هذا الرجل كان يعيش فى جزيرة انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين ، وكان له صديق يسمى « سلامان » وكان فى تلك الشريعة أقوال تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة ، وأقوال أخرى تحمل على العزلة والانفراد ودل على أن الفوز والنجاة فيها ، فمال « سلامان » الى الأخذ بالرأى الذى يدعو الى ملازمة الجماعة والنفور من الرأى الآخر ، ومال « أسال » الى الرأى القائل بالعزلة والانفراد ، لطبيعة كل منهما التى فطره الله عليها ، وعزم « أسال » على أن يترك الجزيرة ومن فيها ، وتوجه الى الجزيرة التى كان يقيم بها « حى » ، وهناك التقيا صدفة ، فأعرض « أسال » عن « حى » حتى يتفرغ للعبادة والخلوة ، لكن « حيا » أقبل على « أسال » حتى يعرف حقيقته ، فهو لم يكن رأى

رجلا على مثل صورته ، فتبعه حتى أتيحت له فرصة أن يراه وهو يتعبد فى خشوع وخضوع وتبتل يبكى ويتضرع الى الله ، فأنس « حـــى » اليه ودنا منه حتى ألفه « أسال » ، وعرض « أسال » عليه شـــيئا من طعام الجزيرة المعمورة ، فأكل « حـــى » منه تطييبا لخاطر « أسال » على الرغم من أنه لم يكن يعلم عنه شيئا ، خـــارقا بذلك ما كان ألزم نفسه به من قلة الطعام والشراب حتى يسهل عليه الوصول الى المقام الكريم الذى وصل اليـــه •

وبعد أن أكل « حـــى » من طعام « أسال » وعاد الى حـــاله ، وأراد أن يصل الى مقامه الكريم صعب عليه ذلك ، فعزم على مجالسة « أسال » حتى يعرف خبره ، ثم يتفرغ لحـــاله بعـــد ذلك ، فعلمه « أسال » الكلام ، وعرف كل منهما قصة الآخر ، وعرف كل منهما من الآخر ما عنده من علم ــ الدين والحقيقة ــ فرأيا ألا تعـــارض بين حقائق الدين وحقائق المشاهدة ، ودهش « حـــى » لحال الناس الذين كلمه عنهم « أسال » وعـــزم على أن يلتقى بهم لعـــله يؤثر فيهـــم ، ويعيدهم الى الفطرة ويريهم بعض ما رآه ، ووصل هو اليه بفطرته ، وطمع « أسال » أيضا أن يهدى الله على يـــد « حـــى » بعض معارفه ومريديه الذين كانوا معه ، وهيأ الله لهما الوصول الى الجزيرة المعمورة ، حيث التقيا بأصحاب « أسال » ممن كانوا معه قبل أن يتركهم ، وعرفهم بـــ « حـــى » وأخبر « حيا » أن هؤلاء هم الخاصة الذين يمكن أن يؤثر فيهم ، وان لم يستطع فسيكون عن التأثير فى عامة الناس أشـــد عجزا ، وأخذ « حـــى » يبث فيهم أفكاره ، وما وصل اليه لكنهم لم يستجيبوا له ، ونفروا منه ، فيئس من وصولهم الى منزلتـــه ، وكذا سائر الناس فاعتذر لهم ، « ولسلامان » صديق « أسال » وتركهم

وشأنهم ، وأوصاهم بما هم عليه من الالتزام بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والايمان بالمتشابهات ، والتسليم بها ، والاعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة ، والاقبال على الدنيا وحذرهم من ذلك غاية التحذير ، وأيقن هو وصاحبه « أسال » أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها بهذا الطريق حتى تكون من أصحاب اليمين أما السابقون السابقون ، فأولئك المقربون • وودعا الناس من أهل الجزيرة وانفصلا عنهم ، وعادا الى جزيرة « حي » ، وطلب « حي » مقامه الكريم بالنحو الذى طلبه به أولا حتى عاد اليه ، واقتدى به « أسال » حتى قرب منه أو كاد ، وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين(١٥) •

الفكر فى « حى بن يقظان »

تعد قصة « حى بن يقظان » لابن طفيل ، التى نحن بصدد الحديث عنها فى نظر خاصة المفكرين والمثقفين من أكبر الأعمال القصصية الفكرية فى العصور الوسطى • لا فى الأدب العربى وحده ، ولكن فى نطاق الآداب العالمية جميعا ، وهى الى القصص الفكرى أقرب منها الى القصص الأدبى ، بمعنى أن هذه القصة تضم مبادىء فكرية ، وتسير فى نطاق ممهد على أرض فلسفية ؛ لأن المؤلف ينتمى الى مدرسة فكرية

---

(١٥) راجع بتصرف د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ورسالته حى بن يقظان ص ٥٦ ــ ١٣٠ الطبعة الثانية • مكتبة الأنجلو المصرية

فلسفية لها مبادئها ، وعناصرها ، وأهدافها ، وهو مرتبط بتلك العناصر والأهداف مشدود اليها ، لا يحيد عنها ، فهو فيلسوف كبير فى نطاق الفلسفة الاسلامية ، وتلميذ مخلص لشيخ فلاسفة الشرق ابن سينا راسم على منهاجه »(١٦) .

بل هو « من أشهر المفكرين العرب الذين خلفوا الآثار الخالدة فى عدة ميادين منها : العلوم الرياضية ، والفلسفية ، والفلك ، واختراع الآلات ، وهو الذى نقد نظريات بطليموس فى الفلك ، وتنسب اليه بعض النظريات الخاصة بتركيب الأجسام السماوية ، ويقال انه وفق الى صياغة نظام فلكى جديد يخالف ما جاء به بطليموس »(١٧) .

ولما كان ابن طفيل ينتمى الى مدرسة فكرية فلسفية لها مبادئها وعناصرها وأهدافها ، وهو مرتبط بتلك العناصر والأهداف مشدود اليها لا يحيد عنها ، فان « الفكرة لها حدود ملتزمة بعكس الخيال الذى لا يلتزم بحدود ، ولا يتقيد بنطاق ، ومن هنا كان جوهر قصة « حى ابن يقظان » أقرب الى المنهج الفلسفى من حيث الطابع والهدف من قصص أبى العلاء ، وابن شهيد ، وبديع الزمان ، ومن هم على شاكلتهم ، والى جانب ذلك فان ابن طفيل أديب رقيق وشاعر أنيق ، انه ابن وادى آسن منبت الشعراء والأدباء الموحى بسحر القول خلابا كخمائله

---

(١٦) راجع بتصرف د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى : موضوعاته وفنونه ص ٦٨٥ ـ ٦٨٧ دار العلم للملايين بيروت ط ٦ مارس ١٩٨٦م .

(١٧) الموسوعة العربية العالمية ١٥/٦٠٠ .

ورياضه ، الملهم رائق الشعر جذابا كنسامه وجداوله ، فلطالما أمد هذا الوادى الجميل بيئة الأندلس بالشعراء والشاعرات والعلماء والمؤرخين ... فالرجل ذو طبيعتين ، واحدة أدبية مهتاجة شاعرة والأخرى فكرية فياضة عالمة ، ولم يكن قادرا على أن يفصل بين طبيعتيه هاتين ، الأدبية الشاعرة ، والعالمة الخابرة ، الأمر الذى وضح كل الوضوح فى قصته « حى بن يقظان » حين قدم مزيجا بارعا من عمق الفكرة ورصانة العلم ، ونتاج التجربة فى ثوب مشرق من رقيق الألفاظ ووضوح العبارة وسلاسة الأسلوب »(١٨) .

وسوف نحاول الآن التعرف على الأفكار التى تحويها قصة « حى بن يقظان » لابن طفيل .

« قضية خلق الانسان »

« حاول ابن طفيل من خلال « حى بن يقظان » أن يوجد نظاما فلسفيا حول النشوء الطبيعى »(١٩) للانسان ، أو ما يعرف « بالتوالد الذاتى عن طريق تخمر الطين فى درجة حرارة معتدلة »(٢٠) فتحدث عن المكان الذى نشأ فيه « حى » من غير أم ولا أب ، راويا عن السلف الصالح أنه جزيرة من جزائر الهند التى تقع تحت خط الاستواء جوارى الواقواق وأنها أعدل بقاع الأرض هواء ، وأتمها

---

(١٨) د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ مرجع سابق .

(١٩) الموسوعة العربية العالمية ١٥/٦٠١ .

(٢٠) ابراهيم خورشيد وآخران : دائرة المعارف الاسلامية ١/٣٢٧ كتاب الشعب ـ طبعة الشعب .

لشروق النـــور الأعلى عليهـــا اســـتعدادا ، على الرغم من أن جمهور الفلاسفة والأطباء يخالفون ذلك لأنه ليس على خـــط الاستواء عمارة لمـــانع من الموانع الأرضية هو شدة الحرارة ، الا أن ابن طفيل يخطىء الفلاسفة والأطباء فيما ذهبوا اليه لانتفاء الأسباب التى تجعل هـــذه المنطقة حارة ـــ من وجهة نظره ـــ « لكن العلم الحديث أثبت أن منطقة خط الاستواء ليست كما فهم ابن طفيل »(٢١) .

ثم يتتبع ابن طفيل ـــ على لسان من أجازوا تولد الانســـان من الأرض ـــ مراحل خلق الانسان « حـــى » فى هذه المنطقة منذ أن كان قبضة من طين الى أن صار خلقا تام الأعضاء ، فخاض فيما لا يعلمـــه الا الله من تفصيلات دقيقة لخلق الانسان ، ولقد أخبرنا الله ســـبحانه عن خلق الانسان من طين ، وأطوار الخلق فى كتابه العزيز فقال تعالى: « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيـــه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »(٢٢) .

وقال تعالى : « خلق الانسان من صلصال كالفخار »(٢٣) .

وقال أيضا : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون .

---

(٢١) د/ محمد رشـــاد عبد العزيز دهمش : اطلالة على فلســـفة المسلمين فى المغرب ص ١٠١ كلية الدراســـات الاســـلامية والعربية جامعة الأزهر سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ناقلا عن د/ غلاب المصدر : الفلسفة الاسلامية فى المغرب ص ٤٢ وما بعدها .

(٢٢) السجدة ٧ ـ ٩ .

(٢٣) الرحمن : ١٤ .

والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون »(٢٤) .

وقال أيضا : « يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »(٢٥) .

وقال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »(٢٦) .

والمقصود فى هذه الآية بالانسان ــ والله أعلم ــ : آدم على أنه خلق من طين مباشرة ، أو يكون المقصود بالانسان : الذرية ، وهم أيضا مخلوقون من مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمها ، وهو مكون من أغذية ترجع فى أصل تكوينها الى الطين »(٢٧) .

---

(٢٤) الحجر ٢٦ ــ ٢٨ .

(٢٥) سورة الحج : ٥ .

(٢٦) سورة المؤمنون ١٢ ــ ١٤ .

(٢٧) راجع فى ذلك سماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ١٨/٢٢ وما بعدها .

وواجبنا أن نؤمن بخلق الانسان من طين ، دون بحث فى كيفية هـذا الخلق فهو داخل فى اطار قدرة الله القادر الحكيم الخبير ، وهو غيب لم يرد شىء عن تفصيله ، ولا نقيسه بقدرة عقولنا القاصرة ...

أما ما يروى من أحاديث تتعلق بوصف خلق الانسان من تراب ثم من طين ثم حمأ مسنون ثم صلصالا كالفخار ، كالذى يروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ان الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينا ، ثم تركه حتى اذا كان حمأ مسنونا ، خلقه وصوره ، ثم تركه حتى اذا كان صلصالا كالفخار قال : فكان ابليس يمر به ، فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ... الخ فان هـذا الحديث منكر كما قال النسائى (٢٨) .

والخوض فى مثل هـذه الأمور يجر الانسان الى ما لا تحمد عقباه ، والأجدر أن نقف عند ظاهر النص القرآنى والسنة النبوية ، لا نتجاوز ذلك حتى لا نضل ، ولا نضل .

فما الذى جعل ابن طفيل يخوض غمار هـذه القضية ؟ قضية خلق الانسان من غير أم ولا أب ، على الرغم من أنها قضية لها فى الواقع ما لا شك فيه وهو خلق آدم عليه السلام ، وهو الاعجاز المنقطع النظير ، فهو خلق من عدم ، على غير مثال سبق ، أما ما يحدث فى العصر الحديث من تخليق لكائنات حية ، فيما يعرف « بالاستنساخ » فهو تخليق من خلايا حية موجودة ، خلقها الله عز وجل ، فما زال وسيظل

---

(٢٨) الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ١/٨٦ وما بعدها دار الفكر العربى بدون تاريخ .

العلم عاجزا عن خلق خلية حية واحـــدة من عدم ، وصدق الله عز وجل : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » فضلا عن المحـــاذير الشرعية والأخلاقية لمثل تلك الأفعال .

ونعود لنسأل السؤال نفسه مرة أخرى ما الذى جعل ابن طفيل يخوض غمار هـــذه القضية ؟

لعـــله أراد أن يختلق هـــذه القضـــية ليـــدلى بآرائه الفلسفية والتاريخية والجغرافية ناقضا رأى جمهور الفلاسفة والأطباء فى عدم صلاحية منطقة خط الاستواء للعمارة والحياة ، ذاكرا عكس ما زعموا ، الا أن العلم الحديث أثبت عكس ما ذهب اليه فى هذا الشأن .

أو لعل ابن طفيل خاض غمار قضية خلق الانسان من طين ليعطى بطل قصته « حـــى » قداسة ، اذ جعل خلقه معجزة ، وما كان أغناه عن ذلك ، فمن من مخلوقات الله عز وجل ليس فى خلقه ، بل وفى كل عضو من أعضائه ، وحاسة من حواسه ، وخلية من خلاياه ، اعجـــاز وسبحان الله القائل : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(٢٩) .

ولله در القـــائل :

« وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر »
له فى كل شـــىء آيـــة تـــدل على أنـــــه القـــادر

---

(٢٩) سورة الذاريات : ٢١ .

الفكر الطبى :

كان « ابن طفيل » طبيبا ماهرا ، حتى انه أهل لأن يكون الطبيب الخاص للسلطان أبى يعقوب يوسف أحد سلاطين دولة الموحدين فى المغرب ثم لولده أبى يوسف يعقوب ، الملقب بالمنصور ، كما أسلفنا .

وقد ظهر أثر تعلمه الطب فى قصة « حى بن يقظان » فتوصل الى القلب وحدد موقعه ، وشرحه ، ووصفه وصفا يتفق مع ما جاء عنه فى الطب الحديث ، فهو يقول واصفا التقفص الصدرى والرئة والقلب ، محددا مكان كل عضو ، حين ماتت أمه الظبية : ... فعزم على شق صدرها ، وتفتيش ما فيه ، ... وأفضى الى الحجاب المستبطن للأضلاع ، فرآه قويا ، ... وتلطف فى خرقه حتى انخرق له ، فأفضى الى الرئة ... وكان أولا انما وجد نصفها الذى هو فى الجانب الواحد ... فمازال يفتش فى الوسط حتى ألفى القلب ، وهو مجلل بغشاء فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة ، والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشق منها ، .. فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ، ووجد الرئة كمثل ما وجده من هذه الجهة ، فحاول هتك حجابه ، وشق شغافه ، فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ مجهوده .

وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة ... فشد عليه يده ، فتبين له أن فيه تجويفا ... فشق عليه ، فألقى فيه تجويفين اثنين ، أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى . والذى من الجهة

اليمنى مملوء بعلق منعقد ، والذى من الجهة اليسرى خال لا شـــىء فيـــه »(٣٠) .

وحاول مرة أخرى أن يشرح حيوانا « حيا » ليعرف ما بداخله الجهة اليسرى من القلب ، « فعمد الى بعض الوحوش ، واستوثق منه كتافا ، وشقه على الصفة التى شق بها الظبية حتى وصل الى الجهـة اليسرى منه وشـــقها ، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخـــارى يشبه الضباب الأبيض ، فأدخل اصبعه فيـــه فوجد من الحرارة فى حـــد كاد يحرقه ، ومات ذلك الحيوان على الفور ، فصح عنده أن ذلك البخـــار الحار هو الذى كان يحرك هـــذا الحيوان ، وأن كل شخص من أشخاص الحيوان فيـــه مثل ذلك ، ومتى انفصل عن الحيوان مات »(٣١) .

فماذا يقول الطب الحديث عما وصل اليه ابن طفيل فى « حـــى ابن يقظان » ؟ الطب يقول عن موقـــع الرئتين من القلب مثـــل ما قال ابن طفيل : « تقع الرئتان ــ عضوا التنفس الأساسيان ــ على جانبى القلب ــ بالتجويف الصدرى ، وهما تمدان الدم بالأكسجين من هواء الشهيق ، وتخلصانه من ثانى أكسيد الكربون فى هـــواء الزفير وهـــو ما يسمى بعملية التنفس »(٣٢) .

---

(٣٠) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٧٧ وما بعدها .

(٣١) المصدر السابق ص ٨١ .

(٣٢) نخبة من علماء مؤسســة جولدن بريسس : الموسوعة الطبية الحديثة ٤/٧٣٨ سلسلة الألف كتاب . اشراف الادارة العامة للثقافة ــ وزارة التعليم العالى .

وعن القلب ومكانه ، يقول الطب الحديث :

القلب : عضو عضلى مقسم من الداخل أربع حجرات ، اثنتان فى الجانب الأيمن ، واثنتان فى الجانب الأيسر ، وتتصل كل حجرتا كل جانب احداهما بالأخرى بصمام ، ويشبه قلب الانسان فى شكله ثمرة الكمثرى المقلوبة فى حجم قبضة اليد ، ويقع فى الجـزء الأوسط من يسار الصدر بقرب عظم القفص ، ويزن رطلا واحدا تقريبا ، وينبض ما بين سبعين الى ثمانين نبضة فى الدقيقة الواحـدة ، وهو مغلف بغشاء متين يسمى « التاجور » وحجراته مبطنة بغشاء رقيق يسـمى « بطانة القلب » وتغتذى عضـلاته القوية من أوعيـة القلب الدموية الخاصة المعروفة بالشرايين التاجية » .

وتقوم هـذه العضلة (عضلة القلب) بعمل مضخة تحكم دوران الدم فى دائرتين اثنتين (الدورة الدموية) و (الدورة النظامية) فيتلقى الجانب الأيمن من القلب الدم من الأوردة الكبرى التى تجـمع تصريف الدورة النظامية ، ثم يدفعه الى الرئتين حيث يتخلص من ثانى أكسيد الكربون ، ويحصل على الأكسجين ، ويتجمع الدم المؤكسد فى الأوردة الرئوية ، ومنها يدخل الجانب الأيسر من القلب الذى يدفعـه الى الدورة النظامية من طريق أكبر الأوعيـة الدموية فى الجسم أى (الأورطى) ويتم ضخ الدم بشكل انقباض دورى لعضـلة القلب ، يتلوه انبساطها أو ارتخاؤها ، وتدفع هـذه المضخة البشرية المحكمة الضبط ما يقرب من خمسة لترات من الدم كل ستين ثانية »(٣٣) .

---

(٣٣) راجع : الموسوعة الطبية الحديثة ٥/١٠٧٠ وما بعدها ـ مرجع سـابق .

قانــون الجــاذبية :

ذكر ابن طفيل فى « حــى بن يقظان » ما يتعلق بحركة الأجسام الى أعلى أو الى أسفل ، وذلك متعلق بالثقل أو الخفة ، فيقول : « أن جميع الأجسام حيها وجمادها لا يخلو كل واحد منها من أحد أمرين : اما أن يتحرك الى جهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء ••• واما أن يتحرك الى الجهة المضادة لتلك الجهة ، وهى جهة السفل مثل المــــاء وأجزاء الأرض وأجزاء الحيوان والنبات ••• الخ »(٣٤) •

وذلك ما يعرف فى العلم الحديث بالجاذبية ، وهى : « قوة الجذب التى تعمل بين جميع الأجسام بسبب كتلتها ، أى كمية المــادة المكونة لها ، وبسبب هــذه القوة فان الأجسام التى على الأرض أو بالقرب منها تنجذب اليها ••• وقــد كان أرسطو يرى أن الأجسام الثقيــلة تسقط أسرع من الخفيفة ، وظل هــذا الرأى مقبولا لعــدة قرون ، ولكن فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى العالم الايطالى « جاليليو » له وجهة نظر جديدة عن الجاذبية ، وطبقا لنظريته فان جميع الأجسام تسقط بتسارع (معدل تغير السرعة) واحد ، مالم تعمل مقاومة الهواء أو قوة أخرى على ابطاء سرعة الجسم الساقط •

=

راجع : الشيخ الرئيس أبو على الحسن بن سينا : القانون فى الطب ٢٦١/٢ دار صادر بيروت •

راجع : محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ٩٠٩/٧ ــ ٩١٨ ــ دار المعرفة بيروت ــ لبنان •

(٣٤) عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٨٧ •

وفى أواخر القرن السابع عشر الميلادى قـدم « نيوتن » نظريته التى تنص على أن قوة الجذب بين جسمين تتناسب طرديا مع كتلة كل منهما ، ومعنى ذلك أنه كلما زادت كتلة أى من الجسمين زادت قوة الجذب بينهما ، والنظرية تشير للكتلة وليس للوزن ، ووزن جسم ما على الأرض هو فى الواقع قوة جـذب الأرض التى تؤثر على هذا الجسم ، ويكون لنفس الجسم أوزان مختلفة على سطح كواكب مختلفة ، ولكن كتلته تظل ثابتة ، وتتناسب قوة الجاذبية تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بين مركزى ثقل الجسمين ، فمثلا اذا تضاعفت المسافة بين جسمين فان قوة التجاذب بينهما تصبح ربع قيمتها الأصلية » •

وهكذا سبق ابن طفيل المولود فى القرن الثانى عشر الميـلادى ١١٠٦ — ١١٨٥م سبق جاليليو ونيوتن فيما وصـلا اليـه فى القرن السابع عشر ، وسبق الجميع أرسطو الفيلسوف الاغريقى القـديم ، وهـذا ان دل على شـىء فانما يدل على أن الفـكر الانسانى سلسلة مترابطة الحلقات يضيف اللاحق اليها حلقة أو حلقات •

والجدير فى الموضوع أن ابن طفيل ساق أفكاره العلمية البحتة على لسان رجل بدائى معزول عن العـالم بكل ما فيـه من امكانات ووسائل اتصال ، ولكنه وصل الى ما وصل اليه العلماء الباحثون فى معاملهم وفى ساحات العلم ومكتباته ، والذين أتيح لهم مالم يتح له ؛ ليدلل على قـدرة العقل الانسانى الى الوصول الى الحقيقة ، لو أخلص النيـة وبذل الجهـد •

---

(٣٥) الموسوعة العربية العالمية ١٨/١٠٤ وما بعدها •

والأكثر جدة أن هـذه الأفكار العلمية جاءت فى سياق عمل فنى قصصى تتخذ التجسـيد الفنى ، والتشويق القصصى عناصر ايحـاء واستيلاء على قلوب وعقول المتلقين •

ولم يتوقف ابن طفيل عند الحديث عن القلب وتشريحـه والرئة والقفص الصدرى والجاذبية ، ولكنه أشار الى ما عرف بعد بقـانون الطفو (٣٦) ، والكثافة والوزن والحجم (٣٧) ، وحركة النبات نحـو الشمس والغذاء (٣٨) ، وكروية الفلك (٣٩) •••

الفـكر الفلسـفى :

منذ أن نشأت الفلسفة وجد تياران مختلفان خاصان بوسـيلة المعرفة فيما وراء الطبيعة ، أحدهما : تيار عقلى يعتمد على العقل ويثق فيـه ، والآخر : اشراقى يرتكز على الرياضة الروحية •

وكان للدين تجاه كل منهما موقف معين •

وابن طفيل يرى : أن الملـة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من البحث فيما وراء الطبيعة على طريقة أهل النظر ، وحذرت منـه ، وكذلك لا تقر حرية الرأى فى الأخلاق أيضا ، ذلك أن التفكير محدود الى الغاية ، والانسان لا يمكنه أن يتصور الغيبيات ، ولا يأتى فيهـا الا بضلال مبين ، فكيف يمكن أن يتصور أن الدين يقر حـرية الرأى

---

(٣٦) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٨٧ •

(٣٧) المرجع السـابق ص ٨٧ •

(٣٨) المرجع السـابق ص ٨٥ •

(٣٩) المرجع السـابق ص ٩٥ •

واعمال العقل فى تلك الناحية ، وابن خلدون يضمن لمن يبحث فى تلك النواحى ألا يعود الا بالخيبة ، وابن عبد البر يقول : « قد نهينا عن التفكير فى الله ، وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه » ، وفى الأثر : تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » •

وفى هـذا القول الفصل ، وكان ذلك مبدأ السلف الصالح ، الامام مالك وغيره ، والشيخ محمد عبده فى تفسير جزء « عم » كلما ذكر شىء من المغيبات مثل الجنة والنار ، قال : « هـذه أشياء أخبرنا الله بهـا ، لا نعلم حقيقتها ولكنا بها مؤمنون »(٤٠) •

« وفى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ظهرت حركة فلسفية دينية فى الولايات المتحدة الأمريكية يعتقد مؤيدوها بأن عقل الانسان يتسم بالتفوق على كل الأوضاع والظروف المـادية •

« والفكر الجديد » معتقد يؤكد على قوة الفكر البناء ، وفى رأيهم أنه يمكن للبشر أن يتصلوا بالله عن طريق قوى العقل ، فالله عنـدهم هو العقل الكلى أو الحكمة اللانهائية ، والانسان بحكم اتصاله بالله يتمتع بقدرة خلاقة فى دائرة نشاطه الخاصـة • وبنـاء على ذلك يستطيع الشخص أن يحل أية مشـكلة باسـتخدام القوى العقليـة بصـورة سـليمة »(٤١) •

ولا يخفى فساد هـذا الفكر فيما يتعلق باتصال البشر بالله عن طريق قوى العقل وتأليه العقل ، فالعقل السليم يدل صاحبه على معرفة

---

(٤٠) د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٢٦ ـ ٣٤ بتصرف
(٤١) الموسوعة العربية العالمية ١٧/٣٩٠ •

الله بالبراهين التجريبية ، لكن العقل له حدود يقف عندها لا تقاس به ، وذلك فيما يتعلق بالغيبيات ، والخوارق للعادة •

أما التيار الفلسفى الآخر الخاص بوسيلة المعرفة فيما وراء الطبيعة ، وهو التيار الاشراقى فهو تيار قديم « فالكتب السماوية وعلى الأخص القرآن الكريم توجه دائما نظر الانسان الى أن وراء العقل معرفة لدنية تفيض على الانسان فيضا عن طريق اتصال مباشر بالله (المعراج) أو عن طريق غير مباشر (جبريل) وفى القرآن ذكر للخضر عليه السلام : وهو عبد من عباد الله آتاه الله من لدنه علما » •

وقد وضح الصوفية توضيحا تاما الطريق « انسيكولوجى » الذى يتدرج بالانسان خطوة خطوة حتى يصل بالانسان الى المعرفة الاشراقية(٤٢) •

وقد رسم ابن طفيل طريقى الوصول الى المعرفة بالله (العقلى والاشراقى) فى « حى بن يقظان على لسان « حى » وفى أفعاله » ، فبدأ « حى » أولا بالبراهين التجريبية ، ثم الحدسية الاشراقية ثانيا ، دون أن يعرف لغة يسترشد بها ، أو رسولا يدله على الحق ، ويتم له كل ذلك قبل أن يقيض الله له اللقاء « بأسال » الذى يخبره بحقيقة الرسالة الدينية التى يجد أنها تتفق تمام الاتفاق مع ما كان قد اكتشفه بوسائله الخاصة ، فلا يزيده ذلك الا ثباتا على ما بلغ فى مجاهداته وحدوسه »(٤٣) •

---

(٤٢) راجع د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٣٤ ـ ٣٦ بتصرف •

(٤٣) د/ عبد الله ابراهيم : حى بن يقظان سيرة ذاتية ص ١٠٢ مجلة فصول العدد الثالث خريف ١٩٩٤م الهيئة المصرية العامة للكتاب •

وصاحب النظر الثاقب ، والفطرة المستعدة يمكنه أن يتدرج فى المعرفة من المحسوس الى المعقول ، ومن المعلوم الى المجهول ، حتى يصل الى تكوين فكرة عن عالم ما وراء الطبيعة انه يمكنه ذلك حتى لو نشأ منعزلا عن العالم كلية ، وهـذا هو الوضع الذى كان عليه « حى » فى عزلته التامة عن العالم منذ أن ولد ...

وقد اعتمد « ابن طفيل » على العقل فى المبـدأ ثم اعتمـد على الرياضـة الروحيـة ـ ثانيا ـ ، التى تؤدى الى الاشراق ، ويؤدى الاشراق الى معرفة يضطر معها ابن طفيل الى رفض العقل .

وموقف ابن طفيل هـذا موقف طبيعى ، فان الاعتماد على العقل فى المبدأ طبيعى فاذا ما وصل الانسان الى حق اليقين كان رفضه للعقل طبيعيا أيضـا .

ويرى ابن طفيل أن ما وصل اليه عن طريق المشـاهدة يتفق مع الدين ، فان « حـى » اذا كان نشأ فى عزلة تامة حينما اتصل بأبسال أخـذ عنه الشعائر الدينية . وعمل بها وآمن بالرسالة(٤٤) .

وسوف نرى تفصيل اعتماد ابن طفيل على العقل فى الوصول الى المعرفة ، ثم رفضه للعقل حين وصل الى حق المعرفة على لسان « حى » وفى أفعاله ، فى قصته « حى بن يقظان » .

« بدأ « حـى » بحثه عن سر الحياة ، حينما فوجىء بموت الظبية التى أرضعته ، فكان سبب الموت سؤالا غامضا استفزه للبحث فى كنه الأمر ، فأصبح العثور على سر الحياة هدفا أساسيا من أهداف بحثه ،

---

(٤٤) د/ عبد الله ابراهيم : حى بن يقظـان سـيرة ذاتية ص ١٠١ وما بعدها مجلة فصول . مرجع سابق .

ويغمره شوق عارم حالما يضع يده على السر ، ثم يعلل حنينه للطباء حينما يعثر على مكان وجود الروح أو النفس التى بوجودها فى الجسم توجد الحياة فى الكائنات •

ويبدأ بعد ذلك البحث فى جواهر الأشياء أو نفوسها ، مثل الحيوانات والنباتات ، وتتبين له وحدتها ، واتساق كينونتها ، ثم يقوده البحث الى أنها مركبة من معنى الجسمية ومازاد عليها من صور • ويستنتج ، تبعا لذلك • أن كل جسم مكون من مادة وصورة ، وبذا يكون قد حل أسرار الموجودات الحية التى تحيط به ، وهو بعد فى الثامنة والعشرين من عمره •

ثم يبدأ بعد ذلك ولعه بمعرفة أسرار الأجسام السماوية ، ويشغله أمر صانعها ، فيزداد حنينا لمعرفة كل ما يتصل بذلك الصانع ، وهنا ، فى هذه المرحلة من البحث ، يبدأ قلبه يتعلق بالعالم الأرفع ، ويكون قد بلغ الخامسة والثلاثين • واثر ذلك ، تبدأ مرحلة ثالثة ، يتطور فيها اهتمام « حى » لمعرفة ذات الله وعلمه ، فتتضاعف أحاسيس الاشتياق اليه ، وكلما انكشف له جانب ازداد انغمارا فى سعادته ، وانصرف تماما الى تأملاته الذاتية المجردة ، الى أن يتحقق من أن سعادته لا تكون الا بدوام البحث عن واجب الوجود ، فيبدأ يتشبه بالأجرام السماوية ، ويدور حول نفسه الى أن يفقد احساسه بالوجود ، ويستعين بوسائل الحدس كلها الى أن يبلغ درجة مقبولة من (المعرفة الحقيقية بالله) ويفلح أخيرا فى بلوغ مقصده ، اذ يعتزل الحياة ويلجأ الى مغارة منعزلة ، ولا يشغل الا بادامة علاقته مع الخالق ، وذلك بوساطة ممارسات حدسية شاقة ، سرعان ما يعتادها

مع مرور الزمن ويكون آنذاك قد بلغ الخمسين من عمره »(٤٥) .

وذلك ما يعرف « بالمشاهدة » حيث يرى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتعجز اللغة عن وصفه .

الفن في « حي بن يقظان » :

الفن : هو رؤية وجدانية لواقع معاش مختلط مع واقع دابر أو مع فكرة ملحة ملازمة ، يختار من كل أولئك وينتقى ثم يقوم الخيال بعملية التنسيق والملاءمة ؛ ليقدم في النهاية شكلا جديدا لواقع تبدو صورته على نحو غير مسبوق ، له القدرة على نقل الرؤية الوجدانية في عمل ابداعي هدفه التأثير في المتلقين »(٤٦) .

والأديب عندما يتعامل مع واقع معاش ، أو موروث لابد أن يقدم رؤية جديدة فيها لمحات من الماضي والحاضر ، والظاهر والخفي ، بحيث تخلقها هذه النماذج على هيئة فريدة لأنها الرؤية الخاصة بالفنان »(٤٧) .

---

(٤٥) د/ عبد الله ابراهيم : حي بن يقظان : سيرة ذاتية ص ١٠١ وما بعدها .

وانظر أيضا د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ص ٣٧ ـ ٤٠

(٤٦) د/ عبد اللاه محمود حسن : الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج ص ٥٧ ، مطبعة الأمانة ط ١ سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

(٤٧) المرجع السابق ص ٧٤ .

فيل « حى بن يقظان » التى نحن بصدد الحديث عنها تعبر عن رؤية صاحبها « ابن طفيل » لواقع كان يعيشه ، مختلط مع واقع كان فى الماضى ، أو كانت عليه فكرة ما ، جعلاه يبدع هذا العمل ، وما هدفه منها ؟ وما اللون الفنى الذى اختاره ليصب فيه مضمون عمله ؟ وهل هناك علاقة بين المضمون ، والقالب الفنى الذى صب فيه المبدع أفكاره ؟ كل هذه تساؤلات سوف نحاول الاجابة عنها فى الصفحات التاليـــة .

أما من حيث ما كان يعيشه ابن طفيل من واقع ، أو ما يلح عليه من أفكار دعته الى أن يبدع عمله هذا ، فان ابن طفيل كان يعيش حياة علمية وفنية متنوعة الاتجاهات والسبل ، فكان فيلسوفا ، وكان طبيبا ، وكان عالما رياضيا ، وكان فلكيا ، وكان شاعرا أديبا ، وكان مبرزا فى كل علم من هذه العلوم والفنون ، والخيط الذى يربط بين كل تلك العلوم والفنون هو الوصول الى معرفة الحقيقة ، وكان ابن طفيل يميل الى فلسفة الاشراق التى كانت فى بلاد الأندلس وكان لأصحاب هذه الفلسفة طريقتهم فى الوصول الى المعرفة ، وكان نشاطهم محظورا من قبل القائمين على الأمر فى الأندلس فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

وكان لابن طفيل موقع سياسى واجتماعى وثقافى فى عصره اذ كان وزيرا معروفا فى غرناطة ، وكاتما للسر فى بلاط الموحدين ، وطبيبا لسلطانهم أبى يعقوب يوسف ٥٨٠هـ ــ ١١٨٤م .

وكان عامة الناس فى الأندلس تعتقد بالمالكية مذهبا لم ينافسه مذهب آخر فى ربوعها .

كل ذلك وغيره دعا ابن طفيل أن يعبر عن رؤيتـــه الاشراقية فى أسلوب قصصى ــ حكائى ــ ولم يلجأ الى الوصف المباشر ، لاستحالة الوقـــوف على الاشراق بطرائق الوصف المجـــردة ، لكونه احساسا وانخطافا بموضوعه(٤٨) •

وعلى ذلك نستطيع القول : ان رؤيـــة ابن طفيل تتمثل فى رؤاه الفلسفية والعلمية والكونية التى تسيطر عليه ، « فقد تكون الرؤيـــة الفنية صورة أو نظرة الى العالم ، أو تبصرا فى مصير الانسان ، أو تقييما للصراع بين الخير والشر ، أو كل ما هو تعبير من الكاتب عن قسم من فلسفته للحياة »(٤٩) •

أما الهدف الذى من أجله أنشأ ابن طفيل « حى بن يقظان » فهو نقل رؤيته الاشراقية الى المتلقين، على الرغم من كل المحاذير التى كانت تحوط فلسفة الاشراق فى بلاد الأندلس من الخاصة ــ الحـــكام ــ والعامة ، والوضع السياسى والثقافى والاجتماعى لابن طفيل •

« وغاية ابن طفيل الأساسى من انشاء القصة هى : ايضاح رأيه فى كيفية المعرفة ، وهو تتلخص فى أن الانسان يستطيع أن يصل الى ادراك الحقائق ولو كان قد نشأ فى عزلة تامة ولم يتلق أية ثقـــافة خارجية ، ولم يتحمل أقل أثر من غيره الا أثر العقل الفعال الذى ينـــير

---

(٤٨) راجع بتصرف د/ عبد الله ابراهيم : حى بن يقظان : سيرة ذاتية ص ٩٩ وما بعدها •

(٤٩) محيى الدين صبحى : الرؤيا فى شعر البيانى ص ٣٠ ومابعدها دار الشئون الثقافية ــ بغداد •

طريقه ، وكذلك يستطيع أن يدرك هـذه الحقائق ، ويتذوقها اذا لقنه غيره اياها ، لكن على شرط أن يكون هـذا الانسـان من الخاصة الذين منحوا موهبة فلسفية لحى بن يقظان ، الذى أدركها وحده ، وكصديقه « أبسال » الذى أدركها أولا بوساطة الدين ، ثم بوساطة « حـى » وذلك لأن العامة ليس لديهم الاستعداد لادراك هـذه الحقائق ، ولأن المجهود الذى يبذل فى تهذيبهم يذهب عبثا كما ذهب مجهود « حـى » وصاحبه « أبسال » فى تهذيب أهل الجزيرة المعمورة »(٥٠) .

ويرى البعض أن ابن طفيل يقصد بهذه القصة بيان التطابق بين النقل والعقل بين الدين والفلسفة من حيث انهما يعبران عن حقيقـة واحـدة ، فالدين يصورها بصورة حسية ، والعقل يكتشفها ويصوغها فى قالب عقلى على أن ما أورده ابن طفيل من تقابل بين العقيـدة والفلسفة قـد يوحى بأن ثمـة تعارضا بين الدين والفلسفة ، وأنـه لا التقاء بينهما بدلالة نفور العامة من شرح الفيلسوف للعقيدة ، ولكن الواقع أنه لا يوجد أى تعارض مطلقا ، وأن ظاهر التعارض يرجع الى اختلاف مستوى الادراك عند كل من العامة والفلاسفة »(٥١) .

وصفوة القول ان ابن طفيل أراد أن يبين فى قصته الحقـائق التاليـة :

---

(٥٠) د/ محمد رشاد عبد العزيز دمشق : اطلالة على فلسفة المسلمين فى الغرب ص ٩٦ .

نقلا عن د/ غلاب السيد : الفلسفة الاسلامية فى المغرب ص ٤٢ وما بعدها .

(٥١) د/ محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ٥٧٢ دار المعرفة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٨٥م .

ـ المراتب التى يتدرج بها العقل فى سلم المعرفة من المحسوسات الجزئية الى الأفكار الكلية .

ـ ان العقل الانسانى قادر من غير تعليم ولا ارشاد على ادراك وجود الله بآثاره فى مخلوقاته ، واقامة الأدلة الصادقة على ذلك .

ـ ان هذا العقل قد يعتريه الكلال والعجز فى مسالك الأدلة عندما يريد تصور الأزلية المطلقة والعدم المطلق ، واللانهاية ، والزمان ، والقدم ، والحدوث ، وما شاكل ذلك .

ـ ان العقل سواء ترجح لديه قدم العالم أو حدوثه فان اللازم من كل واحد من الاعتقادين شىء واحد هو وجود الله .

ـ ان الانسان قادر بعقله على ادراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية والتحلى بها ، واخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير اهمال لحق الجسد أو تفريط فيه .

ـ ان ما تأمر به الشريعة الاسلامية ، وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحق والخير والجمال يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف .

ـ ان الحكمة كل الحكمة هى ما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها ، وان الخير كل الخير للناس هو التزام حدود الشرع ، وترك التعمق(٥٢) .

---

(٥٢) د/ عبد الرحمن عميرة : الفلسفة الاسلامية بين التقليد والابتكار ص ١٠٢ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه . نقلا عن الشيخ نديم الجسر : قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٦١ .

ونعود الى الرؤية ودورها فى اختيار الموضوع وتحديد زاوية تناوله ، والشكل الذى سيظهر به ، فنقول : يمكننا الزعم أن رؤية الأديب أو الفنان هى التى تحدد له موضوع فنه ، وهى لا تحدد له الموضوع فحسب ، ولكنها تحدد له أيضا الزاوية التى يتناول الموضوع منها ، ولا يقتصر تأثير الرؤية عند هذا الحد ، ولكنها تتجاوزه الى تحديد طبيعة الصور التى تكون لبنات هذا الموضوع والتى تنثال على مخيلة المبدع ، وهو فى مرحلة بناء عنه ، ذلك أن ذاكرة الانسان لا تستطيع الاحتفاظ بكل الصور التى تمر فى حياته ، أو الصور التى تبرز أمامه بين صفحات الكتب ، ولكنها تحتفظ بالصور التى تحفر عميقا فى نفس الانسان •

واذا صح ما نذهب اليه ، فان رؤية الفنان لا تصبح مؤثرة فى اختياره لموضوعه فحسب ، ولكنها تصبح أيضا مسئولة عن اختياره للتكتيك الفنى الذى يتناول به هذا الموضوع ، ويبقى على الفنان بعد ذلك أن يكون قادرا على اكتشاف أداة فنه ، سواء أكانت الكلمة أو الصورة أو غيرهما ، وقادرا على التعبير عن رؤيته ، والمعاناة الجادة فى سبيل ذلك كله »(٥٣) •

وقد اتفقنا على أن رؤية ابن طفيل التى أراد عرضها فى « حى ابن يقظان » هى مجموع رؤاه الفلسفية الاشراقية التى تحدد رأيه فى كيفية المعرفة ، ومن ثم كان لهذه الرؤية دور فى اختيار الشكل الفنى الذى صاغ فيه عمله ، وهو الشكل القصصى ، « ولقد قيل فى سبب

---

(٥٣) راجع د/ عبد المحسن طه بدر : الروائى والأرض ص ٣١ - دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٧٩م •

صياغتها فى قالب قصصى أن ابن طفيل قد أراد أن ينجو من بلاء العامة ، وأن تخفى أغراضه الا على الخاصة من قومه الذين لا يلهيهم طرافة القص عن عمق الغاية ، ولا بساطة الظاهر عن جوهرية المضمون على نحو ما صنعه كاتب « كليلة ودمنة » حين ذكر فى مقدمة كتابه السبب الذى من أجله عمل « بيديا » الفيلسوف كتابه الذى أسماه « كليلة ودمنة » وجعله على « ألسن البهائم والطير » صيانة لغرضه فيه من العوام ، وضنا بما ضمنه من الطغام ، وتنزيها للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيوبها .

غير أنا نرى رأيا آخر مستندين الى القصة ذاتها حين بدأها ابن طفيل بعرض سريع ومركز لوجهات نظر الفلاسفة والمتصوفين من المسلمين قبله فى مشكلة « المعرفة » ، لأن الرسالة كتبت ردا على مسألة بعث بها صديق الى ابن طفيل على عادة قدمائنا فى اختراع أمثال التعلة مدخلا الى قلب القارىء ، وتواضعا عن الظهور بابتداء موضوع ، وفى صدر « حى بن يقظان » تصريح عن ذلك حين يقول ابن طفيل: « سألت أيها الأخ الكريم ، الصفى الحميم » أبث اليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية ، التى ذكرها الشيخ الامام الرئيس أبو على ابن سينا ، فاعلم أن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بطلبها ، والجد فى اقتنائها » .

فهى اذن رد على رسالة فلسفية ، يخوض فى مسائل فلسفية على نحو ما قال صراحة : « نريد أن نحملك على المسالك التى تقدم عليها سلوكنا ، ولنسبح بك فى البحر الذى قد عبرناه أولا حتى نفضى بك الى ما أفضى بنا اليه ، فتشاهد من ذلك ما شاهدناه ، وتتحقق ببصيرة

نفسك عن كل ما تحققناه ، وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه » .

فالغاية الفلسفية واضحة فى هـذه المقدمة ... وانمـا الذى نستريح اليه ، أن « حى بن يقظان » كانت محاولة لتعليم العامة ، وبسط المشكلات الفلسفية بين أيديهم ، واتخـاذ التجسيد الفنى والتشويق القصصى عناصر ايحاء ، واستيلاء على قلوبهم وعقولهم »(٥٤) .

وبالقاء نظرة فاحصة فى « حى بن يقظان » لنرى تحقق مفهـوم القصة وعناصرها الفنية فيها ، أو بعضها ، فلن تحكم عليها بمقاييس النقد الحديثة ، فلكل عصر أدبه ونقده ، وليس من العدل أن نحاكم أدبا بمقاييس نقد عصر غيره ..

فان نطلب من « حى بن يقظان » أن تكون قصة تتوفر فيها كل عناصر البناء الفنى للقصة الحديثة ، فالقصة فى نظر بعض نقاد الغرب: « حكاية مصطنعة مكتوبة نثرا تستهدف استثارة الاهتمام ، سواء أكان ذلك بتطور حوادثها ، أو بتصورها للعـادات والأخـلاق ، أو بغرابة أحداثها »(٥٥) . .

وتتمثل عناصر البناء الفنى للقصة فى : « الحكاية (الحادثة) ،

---

(٥٤) راجع د/ أنس داود : دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث العربى ص ٢٠١ وما بعدها مكتبة عين شمس .

(٥٥) د/ على محمد طلب : دراسات فى النقد الأدبى الحديث ص ١٨٣ ط دار مروة للطباعة بأسيوط سنة ١٤١٦هـ /١٩٩٦م نقلا عن د/ محمد عبد المنعم خفاجى : الأدب العربى الحديث ومدارسه ٢/٤٣٣ ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

الشخصيات والحبكة القصصية ، والزمان ، والمكان ، والفكرة ، والسرد »(٥٦) .

والى حد ما ينطبق هذا التعريف للقصة ، وعناصرها الفنية على « حى بن يقظان » فهى حكاية مصطنعة ، وليست حقيقية ، ولا يمكن وقوعها الا فى الخيال ، ولكن يمكن وقوع أجزاء منها ، وان كانت الحكاية القصصية المصطنعة عموما ممكنة الوقوع أو على الأقل ليست مستحيلة .

وهى مكتوبة نثرا ، ولغتها سلسة ، سهلة ، واضحة ، مع أن كاتبها فيلسوف ، ولغة الفلاسفة غالبا ما تجنح نحو الابهام والغموض والتعقيد ، ولكن لأن صاحبها فيلسوف شاعر ، جاءت لغتها سلسة مفهومة .

وهى تستهدف استثارة الاهتمام بغرابة فكرتها أولا ، وجزئياتها الفلسفية التى تسعى حثيثا نحو الوصول الى معرفة الله عن طريق العقل والتجربة ، والتأمل الذاتى ، بعيدا عن أى مؤثرات أخرى خارجية .

أما فيما يتعلق بالشخصيات « فهى التى ترتبط بالأحداث ، وتتفاعل معها ، وتصدر منهم أحداث القصة ... وينبغى أن تكون الشخصيات رموزا حية لأشخاص نصادفهم فى حياتنا ، فلا نجدهم من صنع خيال الكاتب بعيدا عن الواقع ، ومن المهم أن يحسن الكاتب رسم شخصياته

---

(٥٦) د/ على محمد طلب : دراسات فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٥ مرجع سابق .

من حيث مظهرها العام وحالتها النفسية والفكرية وسلوكها وظروفها الاجتماعية » (٥٧) .

وشخصيات « حى بن يقظان » محدودة للغاية ، هى : « حـى » البطل ، و « سلامان » و « أبسال » وهما شخصيتان ثانويتان ، تظهران فى أواخر القصة وهما شخصيتان رمزيتان لأشـخاص نصـادفهم فى حياتنا ، لكن « حـى » شخصية من خيال الكاتب أوجدها ليعبر من خلالها عن أفكاره ورؤاه الفلسفية ، لكنه أجاد رسمها من الخارج ومن الداخل ، فهى شخصية بدائية تعيش فى جزيرة نائية مع الحيـوانات والوحوش والطيور ، تقلد أصواتها ، وتحاكى أفعالها لكنه يستعيض بعقله ، ويحتال به ليكون ندا لها من حيث مظاهر القوة التى تمتاز بهـا بعض الحيوانات ..

كما كان الكاتب يراعى الحالة النفسية للبطل ، فـكان يعبر عما يسوءه ويكربه ويحتال له ليخفف عنـه ذلك ، فمثلا عندما كان « حى » يقارن بين نفسه وبين الحيوانات فى الجزيرة من حيث الشكل والجسد والوبر والشعر والريش والقـوة والأسلحة الفطـرية مثل القـرون والأنياب ، والحوافر ، والمخالب فيرى ما به من العرى ، وعدم السلاح ، وضعف العدو ، وقلة البطش ، فكان ذلك يسـوءه ويكربه ، وحين تم عمره سبعة أعوام اتخذ من ورق الشجر ما يستر به نفسه ، واتخذ من أغصان الشجر عصيا يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على

---

(٥٧) راجع د/ على محمد طلب / دراسات فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٧ وما بعدها ، نقلا عن : البلاغة والنقد : مجموعة من الأدباء ص ١٤٨ دار الأصفهانى بجدة ١٩٨١م .

الضعيف منها ، ويقاوم القوى مما أعاد له بعض الثقة فى نفسه ، وتطور لباسه الى أن أصبح من ريش النسور بدلا من أوراق الشجر والحلفاء(٥٨) .

أما أسماء شخصيات القصة فهى أسماء لها صلة بالموروث الفلسفى « فقد وردت الأسماء بعينها فى كتب ابن سينا ، ولعله أول من أطلق اسم « حى بن يقظان » رمزا تشيع به الدلالة اللغوية ، فالحياة واليقظة سمتا العقل الناقد ، والذوق البصير ... أما سلامان وأبسال فهما نقطتا التقاء بين فلسفة ابن سينا والفلسفة اليونانية ، فقد ترجم حنين بن اسحق حكاية فلسفية رمزية عن اليونانية ، وهى فى جملتها صراع بين العقل والشهوة ، ومحاولة من المحدود لادراك المطلق ، واشادة بالجانب الروحى فى الانسان »(٥٩) ...

ونلاحظ أن المؤلف لم يتحدث عن دور الغريزة الطبيعية فى حياة البطل كما أنه و « أبسال » حين ماتا لم يخلفا وريثا يحمل الفكرة من بعدهما فضلا عن حمل اسميهما ؛ ولعل ذلك له دلالته الفنية ..

فقد ذكر المؤلف أن « حى » اهتدى الى مجاراة الأجسام السماوية ، والتشبه بالموجود واجب الوجود ، وأنه كان يتخفف من التشبه بالحيوان ... الخ . وكل ذلك يصرفه عن الغريزة الطبيعية التى هى صفة يحتاج اليها البشر لحفظ النسل وعمارة الكون ، ووراثة

---

(٥٨) راجع د/ عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل بتصرف .
(٥٩) راجع د/ أنس داود : دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث النقدى ص ٢٠٣ .

الأرض ، وما من ذلك شيء في ذهن « حـــي » حتى انه لمـــا ذهب الى الجزيرة مع صديقه « أبسال » وعادا بعـــد أن فشلا في توصيل فكرهما الى العامة ، وظلا في الجزيرة حتى أتاهما اليقين ، ولم يخلفا وريثا يحمل الفكرة عنهما ، فضلا عن حمل اسميهما •

ولعل ذلك يدل على أن فكرة المعرفة بالله لا تورث وانما تكتسب ، وفيما يتعلق بالزمان والمكان • فانهما يلعبان دورا هاما في تكوين القصة عموما فالأحداث تنمو من خلالهما ، وحياة الأبطال وتحركاتهم تبرز في أبعادهما والحبكة القصصية تنمو بوساطتهما ، ومن ثم اعتمد النقـــاد الواقعيون على تصوير البيئة الزمانية والمكانية تصويرا دقيقـــا حتى تصل القصة الى هدفها المنشود(٦٠) •

أما زمان « حي بن يقظان » فغير معلوم ، فهي شائعة في الزمن الماضي ، أوردها على لسان السلف الصالح ، ولعله فعل ذلك ليهيء ذهن المتلقي لأن يصدق ما سيروى له ، ولو كان فيـــه ما لا يصل اليـــه عقله الا بعد كد ذهن ، وشفافية روح ، أو ليقول المتلقي ان هـــذه القصة حدثت في الواقع ليكون تأثيرها فيـــه أقوى ، أو ليتعاطف مع شخصياتها حين يضع نفسه موضـــع البطل ، ولأن السلف الصـــالح لا يلقون الكلام الا بسند وهدف ، فهم لا يروون خيالات ولا أوهاما اذ ان سير الأحداث يروى حقائق وصل العلم الى بعض منها ، أو قضايا مازالت موضع كلام بين العلماء والفلاسفة •

أما مكان القصة فهـــو جزيرة من جزائر الهنـــد التي تحت خـــط

---

(٦٠) د/ على محمد طلب : دراسات في النقد الأدبي الحديث ص ٢٠٤

الاستواء ، فهو يحدد موقع المكان ، ويهدف من ذلك الى الحديث عن نشأة بطل القصة « حـــى » ذاكرا أن هـــذا المكان يتولد فيه الانسان من غير أم ولا أب ...

وهـــذا الصنيع يلجأ اليه كتاب القصة ـ غالبا ـ ليضفو المكان الذى تجرى عليه أحداث أعمالهم حتى يعيش المتلقى مع الأحـــداث والأبطال فى المكان الذى حـــدثت فيـــه كممارســـها المؤلف دون أن يتصورها المتلقى فى خياله تصورا يخالف الواقع ، فلا ينفعل معهم ، أو ينتظر منهم أن يفعلوا أشياء لا تعينهم عليها ظروف المكان أو الزمان الذى يعيشون فيـــه .

وفيما يتعلق بالسرد أو الأسلوب الذى هـــو « نقل الحـــادثة من صورتها الواقعة الى صورة لغوية ، أو صورة تعبيرية وصوره ثلاثة : الطريقة المباشرة ، وطريقة السرد الذاتى وطريقة الوثائق .

وفى الطريقة الأولى يكون القاص كالمؤرخ الذى يسرد من الخارج ، وفى الثانية يكتب على لسان المتكلم ، وهو بذلك يقدم ترجمة ذاتيـــة خيالية ، وفى الطريقة الثالثة تتحقق القصة عن طريقة الخطابات أو اليوميات أو الحكايات والوثائق المختلفة »(٦١) .

وقد استخدم المؤلف فى « حى بن يقظان » الطريقة المباشرة فى نقل الأفكار والآراء الفلسفية والتعـــبير عن أحاسيس البطل فـــكان كالمؤرخ ، ولعل هـــذه هى الطريقة المناسبة لمضمون القصة الفلسفى

---

(٦١) د/ على محمد طلب : دراسات فى النقد الأدبى الحديث ص٢١٦

فضلا عن أن بطلها فاقدا لنكلام فاقـــدا لمن يتحاور معـــه حتى التقى بصديقه (أبسال) .

وهكذا رأينا أن « حى بن يقظان » تحمل كثيرا من عناصر القصـــة بمفهومها الحديث مما يجعلنا نقول : « ان فى قصة « حى بن يقظان » جوانب نضج قصصى فى الشرح والتبرير والاقناع على الرغم من أن القالب القصصى فيها ليس سوى تعـــلة لذكر الآراء الفلسفية الكثيرة المنبثة فى النص ، وبراعة المؤلف تتجلى فى مزجـــه الآراء الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبى وفى جهده لتبرير تلك الآراء منطقيا وفنيا ، ولهذا عدها كثير من النقـــاد خـــير قصـــة فى العصـــور الوســـطى جميعا »(٦٢) .

حى بن يقظان بين التأثر والتأثير :

تأثر المؤلف بالقرآن الكريم فى كثير من مواضع القصة ، فاقتبس منه ، واستشهد به ، وضمن معانيه ، بل واستعان به فى سرد الأحداث ، فحين ماتت الظبية وتحولت جثتها ونتنت ، تحير فى أمرها ، ونفر منها ، رأى غرابين يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا ، ثم جعل الحـــى يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب ، فقال فى نفسه : « ما أحسن ما صنع هـــذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه ، وان كان قد أساء فى قتله اياه ! وأنا كنت أحق بالاهتـــداء الى هـــذا الفعل بأمى ! » وحفر حفرة وألقى فيهـــا جســـد أمه ، وحثا عليهـــا التـــراب »(٦٣) .

---

(٦٢) د/ محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٤٩٧ ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ الفجالة .

(٦٣) د/ عبد الحليم محمود / فلسفة ابن طفيل ص ٧٩ .

هو هنا متأثر بالقرآن الكريم فى قصة ابنى آدم حين قتل أحدهما الآخر وتحير فى الأمر ، فتعلم من الغراب كيف يوارى أخاه فى التراب » .

قال تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين »(٦٤) .

كما تأثر ابن طفيل بابن سينا فى قصته ، فهو يعترف بذلك ، ويبدو ذلك واضحا فى اختيار أسماء أبطال قصته ، « حى » و « سلامان » و « أبسال » وهذه الأسماء قد وردت بعينها فى كتب ابن سينا ، كما أن « سلامان » وأبسال نقطتا التقاء بين فلسفة ابن سينا والفلسفة اليونانية كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

كما تأثر ابن طفيل باخوان الصفا حين توجه فى صدر رسالته بالحديث الى الأخ الكريم والصفى الحميم هو عزف على وتر مشهور فى رسائل اخوان الصفا ، حيث نقرأ فى مفتتح بعض رسائلهم : « اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وايانا بروح منه ... الخ »(٦٥) .

---

(٦٤) المائدة ٢٧ ـ ٣١ .

(٦٥) د/ أنس داود : دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث النقدى ص ٢٠٤ .

أما أثر « حي بن يقظان » فى الأدب العالمى ، فمما يصيب بالدهشة والعجب ، « فان « حي بن يقظان » قد أرضعته ظبية ٠٠ وكذلك فعل صاحب قصة « سيف بن زى يزن » فاختار لسيف ظبية ترضعه ، ثم ارتقى من الظبية الى جنية تعطف عليه فترضعه ، فيكتسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم ٠ وقد أوحت هذه الفكرة الى مؤلف « طرزان » أن يختار لبطل قصته قردة يعيش معها ويحاكى أفعالها ٠

ولما جاء « دانيل ديفو » القاص الانجليزى المشهور اقتفى أثر ابن طفيل وسار على منهاجه فى تأليف قصة « روبنسن كروزو » الذى عاش وحده فى جزيرة مقفرة نائية ، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقا يسعده فى آخر مقامه بالجزيرة وهو « جمعة » ، كما اختار ابن طفيل « أبسال » رفيق « ابن يقظان » الذى التقى به فى المرحلة الأخيرة من القصة ٠

كما أثر فى الكاتب العبقرى « سويفت » مؤلف « جلفر » فى أكثر من موضع فيما يتعلق بتعلم « حى » اللغة من « أبسال » وفى مشكلة الثياب التى كان يرتديها « أبسال » وأثارت دهشة « حى »(٦٦) ٠

وقد أشار الأب « بو اليسوعى » الى وجه الشبه بين حى بن يقظان وبين الفصول الأولى من « الكريتيكون » لبلتازار ٠٠٠ وكان « سرفنتس » قد قضى ردحا من الزمن فى الجزائر فتأثر بها فى قصة « دون كيشوت » وقال عنها « كارا ديفو » : انها جديرة بأعظم نوابغ الفلسفة »(٦٧) ٠

---

(٦٦) راجع بتصرف : كامل كيلانى : قصص عربية : حى بن يقظان ص ١٠٥ ـ ١٠٩ ـ دار المعارف ط ١٤ ٠

(٦٧) راجع بتصرف د/ أنس داود : دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث النقدى ص ١٩٩ ٠

الخـــــــاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتـدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، محمد بن عبد الله ، ﷺ ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعـــــد ...

فقـد عشنا مع « حـى بن يقظان » لابن طفيل ، تعرفنا عليـه أولا ، نقـة منا أن هناك صـلة وثيقة بين المبدع وابداعاته ، تحـمل فكره ، وتبرز رؤيتـه .

ثم أوردنا مضمون العمل الفنى الفـكرى ، ثم طرحنـا لبعض القضايا الفكرية التى تحويها مثل : خلق الانسان ، والفـكر الطبى ، والجاذبية الأرضية — والفكر الفلسفى .

ثم طرحنا للقضايا الفنيـة التى تثـيرها من حيث الرؤية التى تقدمها ، والهدف منها ، والشكل الفنى الذى صيغت فيـه ، والعناصر الفنية للبناء القصصى ، ومدى توفرها فى « حى بن يقظان » .

كما عشنا مع « حى بن يقظان » بين التأثر والتأثير فوجدنا ابن طفيـل متأثرا بالقرآن الكريم بالاقتبـاس والتضـمين والاستشهاد والاستعانة به فى سرد بعض الأحـداث ، وكان متـأثرا بالفلسفة الاسلامية السابقة عليه ممثلة فى فلسفة ابن سينا ، كما تأثر بالفلسفة اليونانية .

وأثرت القصة فى الآداب العالمية تأثرا يثير العجب فى الأفـكار والصور والأخيلة ...

وخلصنا الى أن القصة تعد فى نظر كثير من النقاد خير قصة فى العصور الوسطى جميعا • لما اشتملت عليه من نضج قصصى فى الشرح والتبرير والاقناع على الرغم من أن القالب القصصى فيها ، ليس سوى تعلة لذكر الآراء الفلسفية الكثيرة المنبثة فى النص »(٦٨)•

وأنها تعد ترجمة أمينة وسيرة ذاتية لصاحبها ، « فابن طفيل فيلسوف ، ولذلك غلبت الصفة الفلسفية على جزئيات القصة ، وهو سليم العقيدة ، ومن ثم كانت القصة طريقا مقنعا للتوصل الى معرفة الخالق ، وهو طبيب ، ولذلك توصل فيها الى القلب ••• عن طريق التشريح ، وهو فلكى ، ومن ثم فقد عنى بالسماء والكواكب والنجوم والأجرام السماوية ، ثم هو بعد ذلك كله أديب ، الأمر الذى مكنه من أن يصوغ قصته صياغة فنية فى أسلوب سلس ، رقيق ، يعجب الفلاسفة ، ويرضى عنه الأدباء ، فكلف بها المسلمون كلفا شديدا ، واهتم بها غير المسلمون فترجموها الى عديد من اللغات »(٦٩) •

وقد فصل ابن طفيل فى قصته الحقائق التالية :

ــ العقل الانسانى قادر من غير تعليم ولا ارشاد على ادراك وجود الله بآثاره فى مخلوقاته واقامة الأدلة الصادقة على ذلك •

ــ قد يعترى العقل الكلال والعجز فى مسالك الأدلة عندما يريد تصوير الأزلية المطلقة والعدم المطلق ، واللانهاية ، والزمان ، والقدم ، والحدوث ، وما شاكل ذلك •

---

(٦٨) راجع د/ محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٤٩٧

(٦٩) راجع د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٠٣ •

ـ سواء ترجح للعقل قدم العالم أو حدوثه ، فان اللازم من كل واحد من الاعتقادين هو وجود الله •

ـ الانسان قادر بعقله على ادراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية ، والاجتماعية والتحلى بها ، واخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير اهمال لحق الجسد أو تفريط فيه •

ـ ما تأمر به الشريعة الاسلامية ، وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحق والخير والجمال يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف •

ـ الحكمة كل الحكمة هى ما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها ، وان الخير كل الخير للناس هو التزام حدود الشرع وترك التعمق »(٧٠) •

نسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين • وسلام على عباده الذين اصطفى •

---

(٧٠) راجع د/ عبد الرحمن عميرة : الفلسفة الاسلامية بين التقنين والابتكار ص ١٠٢ •

المصـــادر والمراجـــع

أولا ــ القــرآن الكريم :

ثانيا ــ المؤلفــات المطبوعة :

١ ــ أبو على الحسن ابن سينا ــ الشيخ الرئيس • القانون فى الطب ــ دار صادر بيروت •

٢ ــ ابن كثير ــ الحافظ ــ البداية والنهاية ــ دار الفكر العربى ــ بدون تاريخ •

٣ ــ أنس داود ــ الدكتور ، دراسات نقدية فى الأدب الحــديث والتراث النقدى • مكتبة عين شمس •

٤ ــ الزركلى ــ الأعلام ــ دار العلم للملايين ط ٤/١/١٩٧٩م •

٥ ــ عبد الرحمن بدوى ــ الدكتور : حى بن يقظان ــ مكتبة الأسرة ــ تراث الإنسانية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب •

٦ ــ عبد الرحمن عميرة ــ الدكتور : الفلسفة الاسلامية بين التقليد والابتكار ــ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه •

٧ ــ عبد الحليم محمود ــ الدكتور : فلسفة ابن طفيل ورسالته حى ابن يقظان ــ مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ •

٨ ــ عبد اللاه محمود حسن ــ الدكتور : الظاهرة الأدبية فى شــعر الخوارج ــ مطبعة الأمانة ط ١ سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م •

٩ ــ عبد الله ثقفان ــ الدكتور : الأدب الأندلسى بين حقيقتــــه ومحاولة اغتياله ــ سلسلة كتــاب الرياض عــدد ٣٢ أغسطس ســنة ١٩٩٦م مؤسسة اليمامة الصحفية •

١٠ ــ عبد المحسن طــه بــدر ــ الدكتور : الروائى والأرض ــ دار المعارف ط ٢ ســنة ١٩٧٩م •

١١ ــ على محمد طلب ــ الدكتور : دراسات فى النقد الأدبى الحديث ــ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط سنة ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م •

١٢ ــ كامل كيلانى ــ قصص عربية : حى بن يقظان ــ دائرة المعارف ط ١٤٠٠هـ

١٣ ــ محمد رشاد عبد العزيز دهمش ــ الدكتور : اطلالة على فلسفة الاشراقيين فى المغرب ــ كلية الدراسات الاسلامية والعربية جامعة الأزهر ــ ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م •

١٤ ــ محمد الطاهر بن عاشور ــ سماحة الشيخ ــ تفسير التحرير والتنوير •

١٥ ــ محمد على أبو ريان ــ الدكتور : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام • دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٥م •

١٦ ــ محمد غنيمى هلال ــ الدكتور : النقد الأدبى الحديث ــ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ــ الفجالة ــ القاهرة •

١٧ ــ مدى الدين صبحى ــ الرؤيا فى شعر البياتى ــ دار الشئون الثقافية ــ بغداد •

١٨ ــ مصطفى الشكعة ــ الدكتور : الأدب الأندلسى ــ موضوعاته وفنونه ــ دار العلم للملايين ط ٦ مارس ١٩٨٦م •

ثالثا ــ الدوريات :

١ ــ الأحرار : شخصيات اسلامية ــ الجمعة ١٧ رمضان ١٤١٥هـ ١٧/٢/١٩٩٥م العدد ١١٥٢ السنة ١٨ •

٢ ــ فصول : د/ عبد الله ابراهيم : حى بن يقظان : سيرة ذاتية ــ العدد الثالث خريف ١٩٩٤م ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب •

رابعاً ــ دوائر المعارف والموسوعات :

١ ــ دائرة معارف القرن العشرين ــ محمد فريد وجدى ــ دار المعرفة بيروت ــ لبنــان .

٢ ــ الموسوعة الطبية الحديثة : نخبة من علماء مؤسسة جولدن بريس سلسلة الألف كتاب ــ وزارة التعليم العالى ــ مصر .

٣ ــ الموسوعة العربية العالمية ــ مؤسسة أعمــال الموســوعة للنشر والتوزيع المملكة العربيــة الســعودية ص.ب ٩٢٠٧٢ الرياض ١١٦٥٣ .